البشرى فى مرايا الجرح والتعديل فى التاريخ السياسى

بقلم : ظافر القاسمى

كان الشيخ عبد العزيز البشري أزهريا حرا ، ولا بد لمن كان أزهريا أن يدرس علوم القرآن والسنة وعلم مصطلح الحديث وهوالعلم الذي يترتب عليه معرفة مراتب السنة الشريفة ، ودرجة الزامها ، والعمل فيها ، وكيف يمكن أن ينشأ عنها الحلال والحرام في شؤون الدين والدنيا ، وباب (الجرح والتعديل) من أهم الفروع التي يهتم بها الاساتذة والطلاب في دراية السنة دراية صحيحة ، لأن هذا الباب هو الذي يصنف الرواة بالاستناد اليه ، فمنهم المامون والثقة والعدل ، ومنهم المجروح بالنسيان أو بالتدليس أو بالكذب أو بالوضع ، الى غير ذلك مما هو معروف في كتب مصطلح الحديث . وقد انتقل هذا الباب كما انتقل غيره الى علم مصطلح التاريخ من أجل تمحيص الحوادث التاريخية ، ومعرفة الحقيقة من الباطل ، والصحة من الوضع ، وغير ذلك مما يتعلمه طلاب الجامعات .

واذا كان الحديث عن رواة السنة النبوية مقبولا ، ومعقولا ، ثم أصبح واجبا ، فلا كذلك كان الحديث عن رجال السياسة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وانما كانت أنظمة الحكم تمنع نشر أي شيء عنهم ، وتحيطهم بهالة من الحصانة ، مهما تكن أقوالهم وأفعالهم ، وآثارهم على الحياة العامة للمواطنين والوطن ، ولكن لم تكن هذه الحصانة حصينة دوما بل تسرب النقد والجرح بأشكال مختلفة : منها الاغاني الشعبية ، ومنها النكات المحلية ، ومنها التوريات البديعة .. وغير ذلك من أشكال النقد حتى جاء البشري بشيء جديد لم يكن معروفا من قبل ، ولم يقلد فيما بعد :

جاء بهذه المرايا ، التي تصور أعلام مصر تصويرا جميلا ، كاريكاتوريا ، ولكنه صادق مخلص ، فيثني بلغته الادبية الرفيعة على المحسنين ، ولا يجد حرجا في أن يذكر المسيئين في سياسة الدولة العامة ، أو في تصريف شؤونها الداخلية ، وربما عبث بهم في بعض الاحيان عبثا يدعو الى التفكير في العمل المسند الى المصور ، كما يدعو الى الاعجاب في المصور ولقد فعل البشري هذا في زمان كان ممكنا أن يؤدي النقد السياسي بصاحبه ، اما الى المحاكمة ، واما الى السجن واما الى قطع الرزق ، واما الى صور أخرى من النكال ، واما اليها جميعا ، وقد كان البشري يعرف هذا كله ، ولكنه لم يبال به ، ولم يأبه له ، وانما مضى يصور مراياه بوحي من ضميره أولا ، ومن عقله ثانيا ، ومن بيانه البليغ ثالثا .

ولا ريب عندي في أن البشري من أوائل رواد النهضة الحديثة ، الذين اعتبروا كبار رجال السياسة تحت النقد ، لا فوقه ، وأنهم ملك للامة لانهم يتصرفون بمصائرها ، ويرسمون مستقبلها ، وأن واجب القادرين على النصح والمشورة والتقويم والتصحيح ، أن يفعلوا وسعهم من أجل سعادة الامة وحفظ حقوقها ، ودفعها نحو المنهاج الصحيح ، الذي يرفع من شأنها ، ويدفعها الى مراقي الحضارة ، وسلم المدنية .

المرايا التي صورها البشري ، كانت من حيث يريد أو لا يريد ، جزءا مهما من التاريخ السياسي لمصر في الربع الاول من هذا القرن .. ولعل البشري أراد منها في بادي الامر الصور الادبية ولكنه انتهى الى أنه صنع بحق بعض التاريخ السياسي والفكري ، وربما ذهب بعض الباحثين الى أن البشري كان خفيف الظل سريع النكتة حلو الدعابة ، وقد انعكست طباعة هذه على أسلوبه في مراياه ، فكان منها عبث جميل برىء وكان هذا العبث هو المقصود الاصلي الذي هدف اليه البشري ، ولكنه حمل في طياته بعدئذ أمورا أخرى ذهبت بالمقصود الاصلي وأيا كان الهدف ، فان البشري قد ترك في الصفحات التي قاربت المئتين ثروة تاريخية وسياسية وأدبية وفكاهية منقطعة النظير .

انظر كيف عدل البشري بعض الرؤساء .

قال عن سعد زغلول : (أعلمت أن سعدا لايصلح الا للوطن ، وأن الوطن لايصلح الا بسعد ؟)

وقال عن عدني يكن : (أبى أن ينزل على ماأراد الانجليز أن ينزلوا مصر عليه فقطع المفاوضة ، وعاد من فوره مرفوع الرأس موفور الكرامة)

وقال بمعرض حديثه عن عبد الخالق ثروت : (على أنه مابرح بيننا وبين انجلترا مسائل جليلة ، وان رجالا فيها ليتربصون الفرص ليتحيفوا من حقوقنا ، فما أحوجنا في أمرنا معها الى عزم الابطال ، وما كان الله ليخيب رجاء مصر ، وفيها سعد ، وفيها عدلي ، وفيها ثروت وفيها من يحف بهم من رجالات عظام) ·

ويقول عن الدكتور محجوب ثابت انه (أمة وحده ، بما اجتمع له من الصفات ، وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكدس عليه من ألوان التبعات)

ويقول عن عبد الحميد سعد : (أدرك من شباب سنه أن له وطنا ، وأن هذا الوطن يتحكم في شأنه غير أهله ، وأن واجبه ـ مادامت بلاده محتلة ، مضيعة الحق ـ أن يكون جنديا لمصر ، قبل أن يكون طالب علم في مصر ، وصرف أعظم قسط من الوقت المقسوم لمراجعة الدرس الى حديث الوطن ، واذا كان عبد الحميد سعيد قد أحرز الشهادة الثانوية وأحرز بعدها اجازة الحقوق (ليسانس) فقد اختلس الدرس والمذاكرة لهما من وقت الوطنية اختلاسا !)

هذا بعض ما قاله البشري عن بعض رجالات مصر ، الذين ندبوا أنفسهم للخدمة العامة ، ولم يعرفوا الا الصالح العام ، وهو مما يدخل في باب (التعديل) وكان البشري في ذلك معبرا عن شعور الناس كافة نحو خدام قضيتهم الكبرى ·

فاذا ماعدونا هذا الفصل الى فصل (الجرح) رأينا البشري لايقصر ، وانما هو يجري في هذا الميدان بقدر مايرى ذلك نافعا للصالح العام ، من غير أن يكون له هوى شخصي ، أو مصلحة ذاتية ، فهو يقول عن زيور باشا الذي كان رئيسا للوزراء ، انه :

(معروف بالقناعة ، والتعفف عن الابتذال في احراز الاموال ، ولكنهم في الوقت نفسه يقولون : ان جميع نفقات الولائم التي أقامها في مصر وفي أوربا

قد تناولها من (المصاريف السرية) بينما هو يقبض من خزانة الدولة الف جنيه لهذا الغرض في كل عام !

ومما يحسن ذكره في هذا الموضوع ماتحدثوا به من أنه لما زار أوربا في الصيف الماضي ، طاف بجميع المفوضيات المصرية هناك ، فسل كل مافيها من (المصاريف السرية) حتى اذا علم أنه قد أتى على كل مافي مفوضية باريس من هذه الاموال ، ولم يدع لها قرشا و لابارة ، أرسل تلغرافا الى مفوضية لندن لتسعفه بكل ماعندها من النقود .

ولقد تعرف في زيور باشا طيبة في القلب ، وسلامة في الخلق ، ثم لقد يظهر لك فيه من المكر ، وترى له من أنواع الدس ، مايعيي بمثله أخبث الشياطين ، ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسعدي أنب قومه على اتفاقهم مع الد أعدائهم الاحرار الدستوريين ، واذا أصاب حرا دستوريا قال له : كيف يصح أن تتحدوا مع أولئك المجانين المخربين ؟)

وكان في مصر رجل دعي (أستاذ الجيل) ، ذلكم هو احمد لطفي السيد ، الذي كان من حزب الامة وكان رئيسا لتحرير جريدة سميت (الجريدة) وقد قال عنه البشري :

لم يكن لطفي في سنيه تيك صحفيا فحسب ، بل كان أستاذا يشرع في العلم ، والفلسفة ، وفنون الاجتماع ، وكان له طلاب من الشباب ، أهل المواهب والذكاء ، فما راقك اليوم من علم فلان ، وما أعجبك من عقل فلان وما راعك من أدب فلان ، فأولئك ــ في الحق ــ أكثرهم من صنعة لطفي السيد في تلك الايام .

ثم يشير الى جهاده مع الوفد المصري ، أي مع سعد زغلول ، ثم يقع الشقاق فيتسلل الى بيته ، ثم يضحي مديرا للجامعة ، فيقول البشري :

ولقد فاتني أن أقول لك : ان هذا الرجل الذي ضحى بالمنصب في سبيل الثورة ، قد عاد فضحى بالثورة في سبيل المنصب .. والى هنا ينتهي عندي ذلك الرجل العظيم .

وعساك تتحداني بأنه أصبح الاستاذ الاعظم الرسمي في كل البلاد ، من يوم أصبح (مدير الجامعة) فأجيبك بأني (ماعنديش خبر) بشيء من هذا كله ، وكيف تريدني أن أصدق أن الاستاذ لطفي السيد كله أصبح مدير الجامعة ، في حين لم أسمع بأنه فاض على الطلاب درسا ، أو ألقى محاضرة في العلم واحدة ؟ فان كنت تريد (بمدير الجامعة) ذلك الموظف الذي ينكسر همه على طلب كسى الحجاب والسعاة وتسوية أجور البوابين والجناينية ، و (العرض) لوزارة المعارف عمن يلزم ترقيتهم من جماعة الكتاب فليس ذلك بالرجل الذي يعنينا في مثل هذا المقال ·

(الحق أن لطفي أستاذي ، وانه ليسوؤني أن يختم حياته في هذه الجامعة ، من حيث يجب أن تبتدىء الحياة القوية لعظماء الرجال)

ولا يكتفي البشري بهذا ، بل يشير الى تدخل المستعمر في الجامعه فيقول :

والواقع أن الداء (الاجنبي) قد تفشى في تلك الجامعة ، في حين لم نر لذلك (الحكيم) قولا ولا عملا لو كان هذا المقام مقام تفصيل في مثل هذا الباب لباديت أستاذي العظيم بكثير ·

ويختم البشري مقاله بهذا القول الرائع :

واذا كنت لم أقع من لطفي على أجل فضائله ، فلعلي قد تهديت الى أجل مكارهه ، ان كان ماهتفت به يعد في المكاره ، واني لأرجو بهذا أن أصيب رضاه كاملا ، ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء ، فاقبل عليه يمدحه ويعدد محامده ، فقال الحكيم : ياهذا أولى لك ـ وان اكبارك لما ترى في من فضل لدليل على أنك لاتراني كفءا له فلوقد دللتني على هناتي ، فتلك التي ليست بكفء لي ·

وبهذا النقد الجارح ، وبهذا التوجيه الصريح ، يتناول البشري أستاذه ثم يتحدث بكلمة موجزة عن حقوق الاساتيذ على التلاميذ ، فيقول :

(أسأل الله تعالى أن يعيننا على خدمة أساتيذنا وأحبائنا ، فنحن في حقوقهم من هذه الناحية جد مقصرين !!!) نعم هكذا أختم المقال ، مع ثلاث

اشارات تعجب ، تفصح عما أمسك عن قوله البشري من وجوب مصارحة التلميذ لاستاذه بخطئه على الاقل ·

وكان في تلك الحقبة مهندس معروف هو اسماعيل سري لقب بشيخ المهندسين المصريين وكان امامهم غير مدافع ، فكان وزيرا للاشغال ، قال عنه البشري :

ولو قد ترك اسماعيل باشا سري في عمله الفني البحت ، لأجدى بعلمه على البلاد كثيرا ، ولكن الرزية كلها في المناصب ، وقاتل الله المناصب ، فقد قلد الوزارة ، والوزارة سياسة أكثر مما هي فن ، والرجل لايحذق السياسة ، ولا يفهم منها الا القدر الذي يعصم عليه منصبه ، ويستديم له أبهة الوزارة ، وما اليها من الراتب ، والجدوى على الاولاد والاقارب ·

ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وصول لرحمه ، دائب جاهد في غير ملل ولا سأل ، على كل مايعود على ولده وأصهاره وسائر عشيرته ، ولو مد له في الحكم ، وبسط له في السلطان ، (لرفت) (١) ـ أي : لعزل جميع موظفي الحكومة وجمع الى كل فتى من أهله ٤٥٧ وظيفة في آن واحد ، حتى يستطيع أن يقصر وظائف الدولة عليهم ، فلا يتولى واحدة منها خارج منهم ·

واني لأرجوك أن تكمل الحديث الطريف عن اسماعيل سري في الكتاب ، أي : في المرآة ، لترى أي متهكم كان هذا البشري العجيب ،ويقيني أن الجاحظ لو أدرك البشري أو لو أن البشري ادرك الجاحظ ، لكان بينهما تحاسد تتحدث به الركبان ·

وكان في مصر رجل ظل وزيرا للمالية ثلاث عشرة سنة ، هو أحمدمظلوم باشا ، فانظر كيف يعلل البشري سبب هذا الاستمرار الطويل في الوزارة ، وهذا التعليل هو في نفس الوقت صورة عن أكثر الوزراء أيام الانتداب أو الحماية أو الاستعمار قال البشري :

---

(١) في العامية المصرية : رفت أي عزل ، ويخيل الي أنها من بقايا الفصاح ، ففي القلوس : رفته : كسره ودقه ، وأي كسر أعظم من قطع الرزق ؟

ومظلوم أكفأ الانس والجن لأن يظل ناظرا ـ وزيرا ـ للمالية ثلاث عشرة سنة ، لايلي أمرا ولا يراجع في مسألة ولا يبدي رأيا ولا يقرأ سطرا ، ولا يكتب كلمة ولا ينطق بحرف حتى يقال له : خذ متاعك لقد سقطت الوزارة فلا يجد معه مايحمله معه الا أنفه ، والا يديه ورجليه ، أستغفر الله والا الختم ! فنحن اذا أردنا أن نترجم لمظلوم باشا في حياته الوزارية ، فانما نترجم عن الختم ، والله يعلم ماتعب الا الختم ، ولا جهد الا الختم ، ولااستحق المعاش الكامل (١٥٠٠ جنيه) في الواقع الا هذا الختم ، فطالما دار في غفلة مولاه وبرم ، وطالما نقش وبصم ، وبدل من أحوال الدولة أحوالا ، وبدد أعلاقا وأموالا ، وبسط للشركات الاجنبية في أرضها بسطا ، وأخرج عنها جلائل أملاكها قسطا فقسطا ، فاذا حملتم للباشا ـ أيها المصريون ـ على هذا حمدا أو لوما فاصرفوه كله الى هذا الختم وحده ، فان الباشا ـ والله ـ كاسمه مظلوم !

هل قرأت أروع من هذا في تسلط المستعمرين على الوزراء ، واستخذاء بعض الوزراء أمامهم ؟ وهل رأيت اعتذارا عن مظلوم أقبح من هذا الاعتذار ؟ اللهم اني قد أدركت شيئا مشابها في سورية أيام الانتداب الفرنسي ، ولكني ماعرفت من بلغ في النقد مبلغ البشري ، وان كان بعض الصحف الهزلية قد أتى على شيء من تبصير الجمهور بما يجري ، فان الذي قالوه لم يخلد على الدهر ، لانه صيغ بغير هذه اللغة القرشية الصافية (١) لاأستثني من ذلك الا بعض ماكتبه الصحفي الاديب الفقيد نجيب الريس ، طيب الله ثراه ، وعطر مثواه وأعلى في الجنة غرفته ٠

على أن البشري لم يقصر نقده على الزعماء والرؤساء والوزراء والباشاوات والبكوات ، بل تعداهم الى المشايخ ، انظر المرآة التي رسمها للشيخ أبي الفضل الجيزاوي فقد كتب تحتها :

(الحمد لله ! لم يبق الا مئة ألف جنيه و ٥٠٠٠ سهم بنك عقاري قديم حتى انقطع الى عبادة الله ، والزهد في الدنيا) ! واستمع الى البشري يقول :

---

(١) على سبيل المثال لا الحصر : صدرت جرائد : حط بالخرج ، والكشكول ، والمضحك المبكي ، والدبور ، وغيرها ٠

وفينا اليوم علماء كبار ، ولنا اليوم شيخ اسلام جليل المقدار ، لم يمنعهم علمهم ، ولا دينهم ولا شدة ورعهم عن أن يفقهوا الدنيا ويجاروها في مظاهر حضارتها ورقيها حتى لايطلقوا فينا القالة ، ولا يبعثوا الالسن تتنقص الدين ، والقول بأنه يدعو الى الجمود ، ومناهضة عوامل الرقي والتقدم في الدنيا ، الى حد أن يحيوا ليلة القدر المباركة في دار الوكالة الانجليزية في شهر رمضان الماضي !

ولو قد استشرفت لك ليلة القدر ، فكشفت لك عن (خزانة) الشيخ أبي الفضل الجيزاوي شيخ الاسلام لما وقعت عينك فيها على فقار من الخبز ، بل لوقعت على الآلاف من (البنكنوت) الى أمثالها من أسهم الدين الموحد ، وشركة السكر ، و (الرنت) الفرنسي ، و (القونسوليه) الانجليزي ، وقناة باناما ، و (يانصيب) بلدية باريس الى وثائق الرهون ، والغاروقات ، والامتيازات العقارية ، والاختصاصات ، وأحكام نزع الملكيات ، وان شئت اجمالا قلت : ان خزانة شيخ اسلامنا ـ والحمد لله ـ لاتقل عن خزائن ثلاثة (بنوك) مجتمعات !!

ويعلق الشيخ البشري بظرفه المعتاد فيقول :

(ومَا لنا لانغتبط بهذا ، ولا نباهي به ، وقد كانت كل العمليات المالية في أيدي الافرنج واليهود والاروام والارمن ، وهاهي تي الآن ، تستخلصها من براثن أولئك الاقوام ، أيدي سادتنا العلماء الاعلام) ٠ اه

وبعد فحري بكل دارس لتاريخ مصر المعاصر ، ولاسيما أساتذةالجامعات أن يعودوا الى هذا المصدر الهام ، وأن يوصوا طلابهم بالرجوع اليه ، وأن يتخذه المتأدبون نبراسا لهم وقدوة ٠